الخاتمـــة

فى ختام الحديث عن فن ابن الأثير الإنشائى أسجل ما استنبطه من نتائج حـــول هذا الموضوع الذى مضت أيام وشهور وسنوات طويلة كلها ليال حالكة بين بحث عميـــق وتحقيق دقيق ، ويعلم الله أنى قد انفقت من جهودى العقلية والجسمية والمادية الشىء الكثير حتى أخرج بهذا البحث فلم يقر لى جفن أو يهنأ لى نوم ، أو يسغ لى شـــراب ، هذا منذ سجلت وحتى هذه اللحظة ، وكانت أهم هذه النتائج مايلى : —

١ — أن شخصية ابن الأثير الفنية قد تأثرت بأكثر من عامل لعب دوراً كبيراً فى توجيـــه صنعتها الفنية كالموهبة الفريدة ، والذوق السليم ، والثقافة المتنوعة . فقـــد أفاده حفظه للقرآن الكريم والحديث الشريف فى الإستعانة بهما فى كلامـــــه بالتضمين ، والاقتباس ، والاشارة ، والتلميح . كما أفادته معرفة الأحكـــام السلطانية ككاتب فى دولة صلاح الدين وأولاده فى الكتابة بتقليد الملوك والأمراء والوزراء . أما حفظه الشعر فقد أوقفه على المعانى ومعرفة قائليها المتقـــدم منهم والمتأخر ، ومن — هنا — جعل المعانى مسلكاً وطريقة للتعلم .

٢ — كان ابن الأثير مقلداً فى بنائه للمنهج الشكلى لرسائله فهى على نحو ما هو معـــروف فى الكلام الخطابى من حيث المقدمة التى تمهد للموضوع ثم الموضوع وهو الســـبب الأساسى للكتابة ثم الخاتمة التى تأتى تلخيصاً للموضوع . ويراعى فيما بينهـــــا المناسبة والتآلف . ومن مظاهر التقليد فى المقدمة إدخال ألفاظ تحمل معـــنى الذل والخضوع مثل (الخادم ، العبد ، المملوك ، تقبيل الأرض) ، وهـــذه ألفاظ نجدها فى مقدمات رسائل القاضى الفاضل . وأيضا من التقليد فى المقدمة اشتمالها دائماً على اسم الممدوح ولقبه وكنيته وصفته . ومن التقليد ماطلبه فـــى الكتابة من حسن الافتتاح وهذه قد أخذها من بناء القصيدة العربية فقد كانـــوا يلزمون الشاعر ببداية حسنة تميل نحوها القلوب وتصغى إليها الأسماع . أما الدعاء الذى جعله من أركان الكتاب البلاغى ، واشترط فيه معنى من القرآن الكريـــم أو الحديث الشريف أو الشعر فهذا هو الجديد فى شكل الكتابة فلم نجد هـــذا من قبل عند القاضى الفاضل أو العماد الأصبهانى أو حتى كتاب الفاطميين . وذلك لأن الدعاء إذا اشتمل على واحدة من هذه العناصر الثلاثة كان قريباً مـــن النفوس ، ومحبباً إلى القلوب لما قد جعله الله وسيلة لابتغاء رضوانه .

٣ - وكما كان لإبن الأثير نصيباً من التقليد والتجديد فى شكل الكتابة فكذلك فى موضوعاته فقد كتب فى الحروب والفتوحات والبشرى فكان لسان أمته وقت شدتها وهذا مانجده عند القاضى الفاضل والعماد الكاتب. ولكن ثمة موضوعات جديدة لم أعثر على مثلها عند الكتاب مثل وصفه للشموع والأقلام ، والكتب . ومما يلاحظ على البناء الموضوعى فى رسائل ابن الأثير أن الرسالة الواحدة تتلاحم أجزاؤها المقدمة مع الموضوع ، والخاتمة مع الموضوع وفيها تظهر قدرة ابن الأثير على التوليد اللفظى والمعنوى بحيث لاينتقل من معنى إلى معنى حتى يتمه ويثير معظم دقائقه وهو لايفاجئ القارئ بل نجده يستخدم عند بداية كل معنى أو فكرة أو فصل مايربطه بما قبله بحيث لو نزه معنى من مكانه الأصلى لايدخل الخلل باقى الأجزاء .

٤ - إن ثراء محصول ابن الأثير اللغوى وتمكنه من الإنشاء وقدرته على التوليد يرجع إلى إتساع مخزونه الثقافى وغير الثقافى كالطبيعة والحضارة والترف .

٥ - كانت الكيفية التى تعامل بها ابن الأثير مع الألفاظ أنها تأتى لتخدم المعانى ولذلك كانت الأبنية التى استخدمها فى موضوعاته ذات قيمة فنية بمعنى أن كل بناء (قيمة) فى ذاته ويمثل تشكيلاً لغوياً خاصاً ، وقد استطاع ابن الأثير توظيف كل بناء بما يخدم النص الذى ورد فيه فالأسلوب الإنشائى بما فيه من خيال يفجر معانى عميقة تساعد على إدراك مالا يمكن إدراكه فى الواقع ، والأسلوب الخبرى بما فيه من توكيد ينقل المتلقى من حالة إلى أخرى .

٦ - انقسمت المعانى عند ابن الأثير إلى قسمين : معان مألوفة نهج فيها نهج القدماء وخاصة المتنبى الذى حظى فى شعره بالحكم والأمثال واختص بالإبداع فى وصف مواقف القتال ، وأبى تمام ، لأنه كما يقول : " ربّ معان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر " ، وكذلك البحترىّ ونستطيع أن نقول أن سعة اطلاع ابن الأثير على الشعر العربى قديمه وحديثه وايثاره دواوين أولئك الثلاثة بالحفظ والإستظهار كان من أهم أسباب اتساع القول لديه ، ومعان مبتكرة استخرجها من القرآن الكريم والحديث الشريف .

٧ - لم يكن ابن الأثير يسخر معانيه من أجل البديع أو من أجل توشيح كتاباته بالقرآن الكريم والشعر وإنما كان هدفه الذى يرمى إليه هو المعنى .

٨ - كانت الأنساق الصوتية من بديع ولفظ وجملة وجمل وصياغة وسيلة فنية موظفة فى رسائل ابن الأثير لحمل أبعاد مختلفة .

٩ - لم يسرف ابن الأثير فى استخدام الصور والتشبيهات كما فعل معاصره القاضى الفاضل .

١٠ - ايثار ابن الأثير الإعتدال فى السجع لا الإسراف فيه على طريقة معاصره العماد الأصبهانى .

١١ - وأخيراً يمكن القول بأن الرجل كانت له طريقة كتابية تقوم على دعائم من التقليد وأخرى من التجديد .